غزوة الأحزاب

[الخندق]

حب الانتقام هو الذى دفع اليهود إلى تحزيب العرب على محمد وأصحابه

لم يكن خروج بنى النضير من المدينة بالأمر الهين على نفوسهم، ولا بالأمر الذى تنتهى آثاره بمجرد انتهائه؛ فقد كانت المدينة موطنهم وموطن آبائهم وأجدادهم منذ عهود بعيدة، وكان الأنصار من الأوس والخزرج هم الطارئين عليهم فى عهود الآباء والأجداد، كما كان المهاجرون من قريش هم الطارئين عليهم فى أيامهم الحاضرة، وعلى رغم ما كان يبدو عليهم من مظاهر التجلد والاغتباط عند خروجهم، فإن قلوبهم كانت تغلى بالحقد على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم كارهين وأرغموهم على ترك أرضهم ومنازلهم، وحصونهم وأسلحتهم، وزروعهم وثمارهم، وتجارتهم وأموالهم، وأنعامهم ودوابهم، ولم يسمحوا لهم أن يأخذوا من كل ذلك إلا بمقدار

ما تستطيع أن تحمله الإبل من الأموال والمتاع. فكان كل ما يفكرون فيه أن ينتقموا من أولئك الأعداء، وأن يمكنوا لهم ضربة قاصمة يستطيعون بها القضاء عليهم، أو يستطيعون بها على الأقل أن يخرجوهم من حيث أخرجوهم.

هذا إلى ما كان يملأ قلوبهم من الحسد والبغضاء لذلك الرسول الذى جاء بدعوته إلى مدينتهم، فانتزع منهم تلك المكانة الدينية التى كانوا يستمتعون بها، والتى كانوا يُدِلُّون بها على العرب المشركين فى المدينة وفى غيرها من بلاد العرب وقبائلها. وقد أخذت هذه الدعوة تظهر وتنتشر ويزداد أنصارها على الأيام كثرة وقوة، حتى استطاعوا أن يخرجوهم منها فريقًا بعد فريق، وهم أبناء البلاد وأهلها، وأصحاب الرأى والمكانة فيها.

من أجل هذا وذاك طوى اليهود نفوسهم على فكرة الانتقام، وجعلوا يتلمسون الفرصة للقضاء على محمد وصحبه، وعلى هذه الدعوة التى زاحمتهم فى دينهم وغالبتهم فى أوطانهم.. وكانوا يعلمون أن قريشًا ومن حولهم من الأعراب كارهون لهذه الدعوة، ليس منهم إلا من يناوئها ويود القضاء عليها، وإن اختلفت بينهم الأسباب وتنوعت المقاصد؛ فجعل بنو النضير وَكْدَهم أن يؤلفوا بين أولئك الأحزاب، وأن يكوِّنوا منهم كتلة واحدة ينقضّون بها على محمد وصحبه، فيضربونهم ضربة رجل

واحد، فيقضون عليهم فى ساعة من نهار ثم يفرغون من أمرهم، وبذلك يستريح العرب واليهود جميعًا، ويعود السلام والأمن والطمأنينة إلى الجزيرة كما كان من قبل هذه الدعوة.

خامر الشك قريشًا فى نية اليهود فسألوهم عن دينهم ودين محمد أيهما خير

هكذا فكر بنو النضير، وعلى هذه النية أجمعوا أمرهم وعقدوا عزيمتهم، فخرج حُيَىّ بن أخطب وسلّام بن أبى الحُقَيْق فى نفر من أشرافهم ووجوههم يحزّبون الأحزاب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فقدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقالوا: سنكون معكم عليه حتى نستأصله.. وكأنما خامر الشك قريشًا فى نية اليهود، فترددت فى أن تمالئهم على محمد وهو واحد منها؛ أو كأنما خامرها الشك فى أمر دينها فأرادت أن تطمئن إلى حقيقة الأمر فيه، وأن توازن بينه وبين دين محمد، ذلك الذى يدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وأن تتبين موقفها إن كانت على الحق أو على الباطل فيما تريد من حربه..

لعل قريشًا فكرت فى شىء من ذلك، وقارنت بين موقفها

وموقف محمد، فرأت أنها فى كل ما كان بينها وبينه كانت هى البادية بالعدوان، وأن محمدًا وصحبه لم يكونوا إلا مدافعين عن أنفسهم وعن دعوتهم وعن حقهم فى نشر هذه الدعوة بين الناس، ليؤمن بها من يشاء ويكفر بها من يشاء.. نعم، ولعل شيئًا من ذلك هو الذى دفع قريشًا أن تقول لمن جاءها من أحبار بنى النضير: «يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد.. أفديننا خير أم دينه»؟ فلم يسع اليهود وهم فى موقف الإغراء لقريش إلا أن يقولوا لهم: «بل دينكم خير من دينه، فأنتم أولى بسالحق منه»..

وهكذا دفعهم الحقد والحسد والعداوة للنبى ودعوته إلى عدم التورع فى الشهادة الفاجرة، بأن الشرك خير من التوحيد، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين، وأن ما عليه المشركون من عادات وتقاليد أهدى مما يدعو إليه محمد، صلى الله عليه وسلم؛ وهكذا ينكرون أساس دينهم الذى هو الإيمان بالله وحده، فى سبيل محاربة النبى الداعى إلى ذلك الإيمان، والناهى عن الشرك والإثم والفواحش.. فأنزل الله فى ذلك قوله سبحانه: ﴿ألم تَرَ إلى الذين أُوتُوا نَصِيبًا من الكتاب يُؤمِنُون بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ ويقولُون للذين كَفروا هؤلاء أهْدى من

الذينَ آمنُوا سبيلا * أولئك الذين لَعَنهم الله ومن يَلْعَن الله فَلنْ تَجِدَ لَهُ نصيرًا﴾[1]. فلما قالت اليهود ذلك لقريش سرهم، ونشطوا لما دعوْهم إليه من حرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعلوا يتأهبون لذلك.

جمع اليهود نحو عشرة آلاف من الأحزاب

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى أتوا غَطفَان فدعوهم، إلى حرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأعلموهم أن قريشًا قد بايعوهم على ذلك، ووعدوا رجال غطفان أن يعطوهم ثمار خيبر من النخيل سنة، إذا تم لهم النصر على محمد، فاستجابت لهم غطفان بكل بطونها.. وهكذا جعلوا يحزبون الأحزاب ويُؤلِّبون القبائل، ويجمعون كل من له عند رسول الله ثأر؛ حتى اجتمع لهم - من قريش وغطفان وأسد وسُلَيْم ومن تابعهم من قبائل العرب - نحوٌ من عشرة آلاف مقاتل؛ وسار هذا الجيش الكبير إلى المدينة، تحت إمْرَة أبى سفيان بن حرب، فى شوال سنة خمس من الهجرة (فبراير ٦٢٧).

---

(١) سورة النساء آيتا ٥١ و ٥٢.

الرسول يحصن المدينة بالخندق من الناحية المكشوفة

فلما علم رسول الله ﷺ بنبأ هذا الجيش، جمع أصحابه فشاورهم فيما ينبغى أن يعمل؛ فقال سلمان الفارسى: «يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا خفنا العدو خَنْدَقْنا علينا». فأعجبت المسلمين فكرة الخندق واستراحوا لها.. فركب صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا فى شمال المدينة وراء جبل «سَلْع»[1] فاختَطّ فيه الخندق.

وكان شمالُ المدينة هو الناحية المكشوفة، التى يستطيع العدو أن يدخل المدينة منها؛ أما نواحيها الأخرى فكانت حصينة منيعة، إذ كانت دورها من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت «حَرَّةُ واقِم» من جهة الشرق، «وحرة الوَبْرة» من ناحية الغرب، تقومان كالحصن الطبيعى فى كل ناحية، وكانت آطام بنى قُرَيْظَة فى الجنوب الشرق كفيلة بتأمين مؤخرة الجيش، فلا يمكن أن يُؤتى المسلمون من قِبَلها إلا إذا غدر بهم بنو قريظة؛ وكان بين بنى قريظة وبين رسول الله ﷺ عهد؛ ألا يمالئوا عليه أحدًا ولا يناصروا عليه عدوًّا.

---

(١) سلع: جبل بأطراف المدينة من ناحية الشمال.

الرسول يعمل مع أصحابه فى حفر الخندق

ونَدَب رسولُ الله ﷺ الناس للعمل فى الخندق، وخبّرهم بدنو عدوهم، وأمرهم بالجد والطاعة، ووعدهم النصر إن صبروا واتقوا. فبادر المسلمون فى العمل، واستعانوا ببنى قريظة فى إمدادهم بالقئوس والكرازين والمكاتل، ووكّل رسول الله ﷺ بكل جانب قومًا يحفرونه، فجعلوا يحفرون فى دأب وسرعة ونشاط، حتى لقد كان أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، ينقلان التراب فى ثيابهما من العجلة.

وعمل صلى الله عليه وسلم مع أصحابه لينشطهم، واجتهد فى العمل اجتهادًا شديدًا؛ فكان يضرب مرة بالمِعْوَل، ومرة بالمِسحَاة يغْرِف بها التراب، ومرة يحمل التراب فى المِكْتَل.. وبلغ يومًا منه التعب مبلغًا فجلس ثم اتكأ على حجر بشِقّه الأيسر فنام؛ فقام أبو بكر وعمر على رأسه يمنعان الناس أن يمروا به فينبّهوه. ثم فزع صلى الله عليه وسلم فوثب يقول: «ألا أفْزَعتمونى».. ؟ وأخذ الكرْزِين يضرب به ويقول: «اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة! اللهم العنْ عَضَلا والقارَة، فهم كلفونى أنقل الحجارة!».

وكان المسلمون يعملون فى الخندق وهم يرتجزون الأراجيز

ويتناشدونها، يخففون بها عن أنفسهم ويستثيرون بها نشاطهم وهمتهم؛ فكان رسول الله يشاركهم فى أراجيزهم، ويردد معهم أناشيدهم وأغانيهم.. روى البخارى - بسنده - عن البراء ابن عازب قال: «لما كان يوم الأحزاب وخَنْدَقَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رأيته ينقل من تراب الخندف حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه - وكان كثير الشعر - فسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقْنا ولا صلَّيْنا

فأَنزِلَنْ سكينةً علينا ... وثبِّت الأقدامَ إن لاقَيْنا

إن الأوالى قد بَغَوْا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبَيْنا

ثم يرفع صوته بآخرها.

* * *

وجدّ المسلمون فى العمل ودأبوا، وكان الرجل منهم إذا انتابته النائبة من الحاجة، ذهب إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه، حتى إذا قضى حاجته عاد إلى عمله فى الخندق. وابطأ عن رسول الله رجال من المنافقين، وجعلوا يُوَرُّون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير إذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى فى أولئك المؤمنين قوله سبحانه: ﴿إنَّما المؤمنُون الَّذين آمنُوا بالله ورسوله وإذا كانُوا معهُ على

أمْرٍ جامعٍ لم يَذهبُوا حتى يستأذِنوه إنّ الّذين يستأذِنونَكَ أولئك الذين يُؤمنون بالله ورسوله؛ فإذا استأذَنوك لبعض شَأنهم فأْذن لمَنْ شئتَ منهم واستغفرْ لهم الله إنّ الله غفورٌ رحيم﴾[1]..

ثم قال تعالى فى المنافقين: ﴿لا تجعَلُوا دُعاء الرَّسولِ بينَكم كدعاء بعضِكم بعضًا، قد يَعْلمُ الله الذين يَتَسلَّلُون منكم لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عن أمرِه أنْ تُصيبهم فِتنةٌ أو يصيبَهم عذابٌ أليم﴾[2].

الرسول وأصحابه يقاسون جهدًا شديدًا فى حفر الخندق

وقضى المسلمون على هذه الحال نحو شهر، فى أيام شديدة البرد، على قلة من الطعام وشحٍّ من القوت، حتى لقد كانوا يشدون الحجارة على بطونهم يستمسكون بها من شدة الجوع؛ ولكن ذلك لم يُوهِن من عزمهم ولم يضعف من نشاطهم، إذ كان صلى الله عليه وسلم يشجعهم ويقوى عزائمهم، ويبعث فى نفوسهم الأمل القوى فى انتصار الإسلام وظهوره، وانتشاره فى كل ما حواليه من أمم الفرس والروم وبلاد اليمن.

روى الطبرانى - بسنده - عن ابن عباس قال: «احتفر

(١) سورة النور الآية ٦٢، ٦٣.
(١) سورة النور الآية ٦٣.

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الخندق، وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع. فلما رأى ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «هل دُللتم على رجل يطعمنا أكلة»؟ قال رجل: نعم. قال: «فتقدمْ فدُلَّنا عليه». فانطلقوا إلى بيت الرجل فإذا هو فى الخندق يعالج نصيبه منه؛ فأرسلت إليه امرأته أن: جىء، فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد أتانا. فجاء الرجل يسعى وقال: بأبى وأمى! وله مَعْزَة ومعها جَدْيها، فوثب إليها[1]. فقال النبى، صلى الله عليه وسلم: «الجدىَ من ورائها».. فذبح الجدى وَعَمَدَت المرأة إلى طحينة[2] لها فعجنتها وخبزت، فأدْركت القدْرُ[3]، فثردَت قَصْعتها[4]، فقربتها إلى رسول الله وأصحابه. فوضع صلى الله عليه وسلم إصبعه فيها وقال: «باسم الله.. اللهم بارك فيها! إطعَمُوا».. فأكلوا منها حتى صَدَروا[5]، ولم يأكلوا إلا ثلثها وبقى ثلثاها، فَسرِّح أولئك العشرة الذين كانوا معه أن: اذهبوا وسرِّحوا إلينا بعِدَّتكم[6]. فذهبوا، فجاء أولئك العشرة فأكلوا منها حتى

(١) وثب: قام ليذبحها.

(٢) الطحينة: شىء من الطحين.

(٣) فأدركت القدر: استوى الطعام فيها.

(٤) ثردت قصعتها: فتت الخبز فى القصعة.

(٥) حتى صدروا: حتى رجعوا عنها من الشبع.

(٦) بعدتكم: وأرسلوا إلينا بعددكم من الرجال.

شبعوا، ثم قام ودعا لربة البيت وسَمَّتَ عليها وعلى أهل بيتها[1]..

.. ثم مشوْا إلى الخندق، فقال: «اذهبوا بنا إلى سلمان»: وإذا صخرة بين يديه قد ضَعُف عنها: فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «دعُونى فأكونَ أول من ضربها». فقال: «باسم الله»! فضربها فوقعت فِلقةٌ ثلثُها؛ فقال: «الله أكبر.. قصور الشام وربِّ الكعبة»! ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة، فقال: «الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة»! فقال عندها المنافقون: "نحن نُحَنْدِق على أنفسنا وهو يَعِدُنا قصورَ فارس والروم"»

أصبح الخندق عقبة كئودًا فى طريق الأحزاب

وعمل المسلمون فى الخندق حتى أحكموه؛ فوسعوه وعمقوه حتى غدا بحيث لا تستطيع الخيل اقتحامه، وجعلوا الردم والحجارة إلى ناحية المدينة، لتكون رِدْاء بينهم وبين عدوهم، وليستعينوا بها فى قتال العدو عند الحاجة؛ وشبكوا المدينة بالبنيان، ورُفع النساء والصبيان إلى الآطام[2]، فصارت المدينة

(١) بارك عليها: أى دعا لها بالبركة.

(٢) الآطام: الحصون.

بذلك كالحصن.. ثم عسكر النبي برجاله عند سَفْح «سَلْع»؛ فجعل ظهره إلى الجبل، واستقبل العدو بوجهه من ناحية الخندق، وبينه وبين العدو سَبِخة ذات نَزّ وملح. وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف، وعِدة فُرسانهم ستة وثلاثين فارسًا.

وحين فرغ صلى الله عليه وسلم من أمر الخندق، ظهرت طلائع الأحزاب مقبلة على المدينة من ناحية أُحُد؛ فلما صاروا على أبوابها ظهر أمامهم الخندق معترضًا طريقهم، فكانت مفاجأة مدهشة لم يكونوا قط يتوقعونها، حتى قال بعضهم لبعض: هذه مكيدة لم تكن العرب تكيدها. واضطرت الجيوش الزاحفة أن تقف أمام هذا السد العجيب، وأن تتريث قليلا حتى تتدبر أمرها وترسم خطتها من جديد؛ فنزلت قريش وأحابيشها ومن تابعها من كنانة وتهامة فى «مجتمع الأسيال[1]» قبالة الخندق، ونزلت غطفان ومن تابعها من قبائل نجد «بذنب نَقَمَى» من ناحية أحد، وسرحوا خيلهم وإبلهم فى مزارع المدينة. "وكان الناس قد حصدوا زرعهم قبل ذلك بشهر، وأدخلوا حصادهم وأتبانهم؛ وكانت المدينة إذ ذاك جديبة[2]".

---

(١) مجتمع الأسيال: لعله مكان منخفض كان يجتمع فيه السيل.

(٢) إمتاع الأسماع.

وقفت كتائب الأحزاب طويلا أمام الخندق يتلمسون الفرصة لاقتحامه

وقفت كتائب الأحزاب أمام الخندق حائرة لا تدرى ماذا تستطيع أن تفعل؛ فلقد جاءوا وهم يظنون أنها معركة يوم أو بعض يوم، فما هو إلا أن تحيط جموعهم هذه بمحمد وصحبه حتى يلتهموهم فى لحظة، ثم يرجعوا وقد ظفروا بما شاءوا من الغنائم والأسلاب، وفرغوا من أمر هذه الحفْنة الشاردة، التى أزعجت أمنهم، وفرقت أمرهم، وتمردت على ما عرفوا وألفوا من تقاليد الآباء والأجداد. . ولكن تبين لهم أن الأمر ليس كما ظنوا، وأنه لا بد لهم أن يقفوا أمام هذا الخندق طويلا، إن لم يفكروا فى حيلة يستطيعون بها اجتيازه.

وهكذا وقف الفريقان أمام الخندق وجهًا لوجه: المسلمون فى قلة عددهم وضعف عدتهم، والمشركون فى كثرة جموعهم وضخامة استعدادهم. . "ولكن شَتَّانَ بين قوة متماسكة بأمل واحد وإيمان واحد، وبين أناس متفرقين ليست لهم غاية مشتركة تجمع قلوبهم. لقد كان جمع الأحزاب كامل العَدد والعُدد من الناحية المادية، ولكن لم تكن هناك الروابط التى تحملهم على الإخلاص والتعاون فى القتال؛ ولأول لحظة بدا أن أبا سفيان إنما هو قائد الجيش اسمًا لا حقيقة، فقد كان كل من خرج

على رأس قوة يرى نفسه أهلا للقيادة، وأهلا لأن تكون له الصدارة والرأى الأول»[1].

وقف الجيشان أيامًا يرقب كل منهما الآخر، وكتائب الأحزاب لا تنفك تطوف بالخندق ليلا ونهارًا، علّهم يجدون فيه منفذًا ينفذون منه، أو ينتهزون من المسلمين غِرّة يتمكنون فيها من اجتيازه؛ ولكن المسلمين لم يكونوا يغفُلون لحظة، وكلما رأوا طليعة من طلائع العدو تدنو من الخندق أمطروها وابلا من السهام والنبال، فترتد على أعقابها وترجع من حيث أتت.

قال محمد بن مَسْلَمة: «كان لينا بالخندق نهارًا، وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب فى أصحابه يومًا، ويغدو خالد بن الوليد يومًا، ويغدو عمرو بن العاص يومًا، ويغدو هُبَيرة بن أبَىّ يومًا، ويغدو عكرمة بن أبى جهل يومًا، ويغدو ضِرار بن الخطاب يومًا.. حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفًا شديدًا. وكان معهم رُماة يقدّمونهم إذا غَدَوْا بين أيديهم، فتناوَشُوا يومًا بالنبل ساعة وِجَاهَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ورسول الله على فرسه، فرمى حِبَّانُ بن العَرَقة سعد ابن معاذ بسهم فصاب أكْحَله[2]».

---

(١) محمد القائد.

(٢) الأكحل: عرق فى اليد يقال له عرق الحياة ونهر البدن؛ وفى كل عضو منه شعبة. فإذا انقطع لم يرقأ الدم [امتلع الأسماع].

بنو قريظة ينقضون عهدهم

وطال التربص والانتظار بالأحزاب وليس بينهم وبين المسلمين إلا تبادل السهام والنبال من بعيد، وخشى حُيَيّ بن أخطب أن تُفلت الفرصة من يديه، وأن تسأم قريش وغطفان طول المُقام فترجع كل قبيلة إلى ديارها، لا سيما والجو شتاء والأرض مجدبة، وقد أوشك ما معهم من علف الدواب أن ينفَد، وكادت الخيل والإبل تهلك من الهزال. ورأى حيى بن أخطب أنه لا سبيل إلى دخول المدينة إلا من ناحية بنى قريظة، وكان بنو قريظة لا يزالون على عهدهم لرسول الله، صلى الله عليه وسلم فذهب إلى زعيمهم كعب بن أسد، فأغلق دونه بابه، فجعل يحتال عليه حتى دخل إليه فى حصنه، فقال له: "يا كعب، إنما جئتك بِعزِّ الدهر.. جئتك بقريش وسادتها، وغطفان وقادتها، قد تعاهدوا على أن يستأصلوا محمدًا ومن معه".. فقال كعب: "جئتنى ـ والله ـ بذُلِّ الدهر، وبجهَام لاغيث فيه[1].. وَيْحَك ياحيي! فدعنى فلست بفاعل ما تدعونى إليه، فإنى لم أر من محمد إلا وفاءً وصدقًا".. فلم يزل حيى بكعب يَعِدُه ويغريه حين رجع إليه وعاقده على خذلان محمد وأصحابه، وأن يسير

(١) جهام: سحاب خادع ليس فيه مطر ـ وهو يعنى أن حيا يخدعه بمظهر كاذب.

معهم؛ وقال له حيى : "إن انصرفتْ قريش وغطفان دخلتُ عندك بمن معى من اليهود"[1].

الرسول يستوثق من صحة الخبر

فلما علم رسول الله ﷺ بما كان من غدر بنى قريظة، بعث إليهم سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فى نفر من أصحابه، وقال لهم : «انطلقوا إلى بنى قريظة؛ فإن كان ما قيل لنا حقًّا فالحنوا لنا لحنًا ولا تَفُتُّوا فى أعضاد الناس، وإن كان كذبًا فاجهروا به للناس».. فانطلقوا حتى أتوْهم، فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : "لا عهد له عندنا". فجعل سعد بن معاذ يناشدهم الوفاء، ويحذرهم عاقبة الخيانة والغدر، ويقول لهم فيما يقول : "أخشى عليكم مثل يوم بنى النضير وأمَرَّ منه" ! فأفحشوا له فى القول حتى شاتموه وشاتمهم. فقال له سعد بن عبادة : "دع عنك مشاتمتهم، فالذى بيننا وبينهم أكثر من ذلك". ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله ﷺ فى جماعة المسلمين، فقالا : "عضل والقارة" - يعرِّضان بغدر هاتين القبيلتين بأصحاب الرجيع - فقال النبى، صلى الله عليه وسلم : «أبشروا يا معشر المسلمين» !

(١) انفرد القرطبى بهذه الرواية؛ ولكنها طبيعية ومعقولة.

الكرب يشتد بالمسلمين والرسول يملأ قلوبهم بالأمل

وانتهى الخبر إلى المسلمين، فاشتد البلاء وعظم الخوف، وظنوا أن قد أحيط بهم، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فَوْقِكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغت الأبصارُ وبلغَتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنُّون بالله الظُّنونا * هُنالك ابتُلَى المؤمنون وزُلْزِلوا زلزالا شديدًا﴾[1].. فلما رأى رسول الله ﷺ ما بالناس من البلاء والكرب، جعل يبشرهم ويقول لهم: «والذى نفسى بيده ليفرُجَنَّ الله عنكم ما ترون من الشدة، وإنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنًا، وأن يدفع الله إلىّ مفاتيح الكعبة، وليُهلكَنَّ الله كسرى وقيصر، ولتُنْفقُنَّ كنوزَهما فى سبيل الله»!

وفى ذلك الوقت العصيب كشف المنافقون عن حقيقتهم، وأظهروا كثيرًا مما كانوا يُسِرون.. فمنهم من قال: "إن بيوتنا عورة فلننصرف إليها فإنا نخاف عليها"؛ ومنهم من قال: "يعِدُنا محمد أن يفتح كنوز كسيرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط"! وجعلوا يتسللون ويحرض بعضهم بعضًا على الفرار. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وإذ يقولُ

---

(١) سورة الأحزاب الآيات ١٠ ـ ١٨ آيات متصلة.

المنافقُون والَّذين فى قلوبهم مـرَضٌ مـا وَعَـدَنا الله ورسـولهُ إلا غُرورًا * وإذ قالت طائفةٌ منْهم يا أهل يثربَ لا مُقامَ لـكم فارجِعُوا ويستأذنُ فريقٌ منهم النبىَّ، يقولون : إن بيوتَنا عَوْرَةٌ وما هى بعورَةٍ إنْ يُريدونَ إلا فرارًا * .... قـد يعـلم الله المعَـوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هَـلُمَّ إلينـا، ولا يـأتون البـأسَ إلا قليلا﴾[1].

كتائب الأحزاب تشدد الضغط على المسلمين حتى يقتحم بعضها الخندق

ورجع حيى بن أخطب إلى جماعة المشركين يخبرهم بما تم له من حمل بنى قريظة على الغـدر بـالمسلمين، فـانتعشوا ونشـطوا، وقويت روحهم المعنوية، وأعـظموا نـيرانهم مبـالغة فى تخـويف المسلمين وإضعافًا لروحهم.. وكان بنو قريظة قد طلبوا إلى حيى ابن أخطب أن يدع لهم مهلة عشرة أيام يستعدون فيها، على أن تشتد كتائب الأحزاب فى منـاوشة المسـلمين خـلال هـذه المدة، حتى يشغلوهم عن بنى قـريظة، فـكثرت منـاوشات الأحـزاب، واشتدت مناوأتهم للمسلمين حتى أرهقوهم.

ثم أجمع رؤساء المشركين أن يَغْدوا جميعًا، وأن يقوموا بهجوم

(١) سورة الأحزاب الآيات من ١٠ - ١٨ آيات متصلة.

عام على معسكر المسلمين، فجعل فرسانهم يطوفون بالخندق، يتلمسون فيه مضيقًا يُقحِمون منه خيلهم، حتى أتوا مكانًا ضيقًا أغفل المسلمون حراسته، فعبره من رؤسائهم عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطاب، وهُبَيْرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد وُد، وكان عمرو بطلا مغوارًا لا يقوم له رجل من العرب، وكان معتدًّا بنفسه حتى ليعتقدُ أنه كفء لألف، وعلى رغم أنه كان قد بلغ التسعين من عمره كان لا يزال محتفظًا بقوته وسمعته. فلما عبر الخندق في أصحابه جعل يجول بفرسه في السبخة وينادي: "هل من مبارز": فأسرع المسلمون فأخذوا عليهم الثغرة، وتقدم علي بن أبي طالب إلى عمرو فطلب إليه أن ينازله. فلما عرفه عمرو سخر به وقال: "لِمَ يا ابن أخي؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك"! فقال له علي: "ولكني - والله - أحب أن أقتلك".. فحمِيَ عند ذلك عمرو، ونزل عن فرسه فعَقَره بالسيف، ثم أقبل على عليّ فسدد إليه ضربة قوية من سيفه، فاتقاها عليٌّ بدَرَقَته فانقَدَّت، وأصاب السيف رأسه فشجه، فتقهقر له عليّ، فجعل عمرو يلاحقه بضربات سريعة، وجعل عليّ يتقهقر له ويخادعه، حتى خُيِّل إلى عمرو أن هناك من يهاجمه من خلفه، فأدار رأسه لينظر، فعاجله عليّ بضربة خاطفة أطاحت ساقه عن جسده، فأمسك عمرو

بساقه المقطوعة فضرب بها وجه علي، ولكنه أخذ يترنح بعد ذلك حتى سقط على الأرض فأقبل عليه علي فأغمد فيه السيف حتى قتله، فولى أصحابه هاربين، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق، وألقى عكرمة يومئذ رمحه وهو منهزم عن عمرو، وسقط نوفل بن عبد الله عن فرسه في الخندق، فرُمي بالحجارة حتى قتل. ويقال: إن الزبير بن العوام حمل عليه بسيفه فشقه ثِنْتَين.

هجوم عام وحصار شديد

"ثم وافى المشركون من الغد، وقد عبأوا رجالهم وفرقوا كتائبهم، وتحوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد. فصمَد المسلمون لهم، وقاتلوهم يومهم ذاك إلى هَوِيٍّ من الليل[1]، ما يقدر رسول الله ﷺ ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم، ولا صلى أحد منهم ظهرًا ولا عصرًا ولا مغربًا ولا عشاء، حتى كشف الله المشركين ورجع كل من الفريقين إلى منزله. فلما صار رسولُ الله إلى موضع قبته أمر بلالا فأذن وأقام للظهر، وأقام بعدُ لكل صلاة إقامة، وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات".

---

(١) الهوى: الوقت الطويل.

"وهمت بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلا، فجاء الخبر بذلك إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فبعث سَلَمَة بن أسلم فى مائتى رجل، وزيد بن حارثة فى ثلثمائة رجل، يحرسون المدينة. وكان الخوف على الذَّرارِىّ بالمدينة من بنى قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان"[1].

وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم فى مثل الحصن من كتائبهم، وأخذوا بكل ناحية حتى اختلط على المسلمين أمرهم، فلا يدرون أين تقع منهم كتائب أعدائهم، ولا يعرفون هل احتلوا المدينة أو لا. وبلغ الأمر غايته، فجعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يدعو ربه ويقول: «اللهم إنى أنْشُدك عهدك ووعدك! اللهم إنك إن تشأ لا تعبد! اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم لا يغلبهم غيرك»! وجاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ يسألونه: هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ فقال: «نعم. قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»!

قال ابن سعد: وحُصِر رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة، حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يصالح غطفان، على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة وينصرفوا عنه، فأبت ذلك الأنصار، فترك ما كان أراد من ذلك.

---

(١) إمتاع الأسماع بشىء من التصرف.

بشائر الفرج

«إلى هذه اللحظة كان رسول الله ﷺ وأصحابه قد عملوا كل ما يستطاع عمله، وأفرغوا جهدهم فى الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم، حتى لم يبق فى طوق البشر مُدخَر. وهنا تدخلت العناية الإلهية، لتأخذ بأيدى أولئك المؤمنين الذين جاهدوا فى الله حق جهاده، فأخذ سير المعركة يتطور على نحو لا يدرك الناس كنهه، ﴿وما يعْلَم جُنود رَبِّك إلَّا هُو وما هى إلا ذِكْرى للبَشَر﴾»[1].

خدعة نعيم بن مسعود

«وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين أن أتى نُعَيم ابن مسعود الأشجعى مسلمًا، فقال: «يارسول الله، إنى قد أسلمت ولم يعلم قومى بإسلامى، فمرنى بما شئت». فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنما أنت رجل واحد من غطفان، فلو خرجت فخذَّلت عنا - إن استطعت - كان أحب إلينا من بقائك معنا، فاخرج فإن الحرب خُدعة».. فخرج نعيم

(١) فقه السيرة، والآية من سورة المدثر رقم ٣١.

ابن مسعود حتى أتى بنى قريظة - وكان ينادمهم فى الجاهلية - فقال: «يابنى قريظة، قد عرفتم وُدِّى إياكم وخاصةً ما بينى وبينكم». قالو: «قل، فلست عندنا بمتهم». فقال لهم: «إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم: البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه - وقد ظاهرتموهم عليه - فإن رأوا نُهزَة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوْا بينكم وبين الرجل، فلا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنًا من أشرافهم».. ثم خرج حتى أتى قريشًا، فقال لهم: «قد عرفتم وُدى لكم معشر قريش وفراق محمدًا، وقد بلغنى أمر أرى من الحق أن أبلغكموه، نصحًا لكم، فاكتموا على». قالوا: «نفعل». قال: «تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما كان من خذلانهم محمدًا، وقد أرسلوا إليه: إنسا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا، ونسلمهم إليك تضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم»؟ ثم أتى غطفان وقال مثل ذلك..

فلما كان ليلة السبت - وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين - أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان يقول لهم: «إنا لسنا بدار

مُقام، قد هلك الخفُّ والحافر[1]، فأعِدُّوا صبيحة غد للقتال حتى نناجز محمدًا».. فأرسلوا إليهم: «إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد علمتم ما نال مَنْ تعدَّى منا فى السبت. ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقةً لنا، فإنا نخشى إن ضرَستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تَنْشَمِرُوا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه».

فلما رجع الرسل بذلك قالوا: «صدقَنا - والله - نعيم ابن مسعود» فردوا إليهم الرسل وقالوا: «والله لا نعطيكم رُهنًا أبدًا، فاخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم». فقال بنو قريظة: «صدق - والله - نعيم بن مسعود»! وخذل الله بينهم واختلفت كلمتهم»[2].

جنود الله

وفى ذلك الوقت الذى تفككت فيه الروابط، وانعدمت الثقة، وتوترت الأعصاب وسئمت النفوس طول المقام، أرسل الله عليهم الريح فى ليلة شاتية، شديدة البرد حالكة الظلام،

(١) الخف: كناية عن الإبل، والحافر كناية عن الخيل.

(٢) القرطبى.

فجعلت تَكْفَأ قدورهم، وتطرح آنيتهم، وتطفئ نيرانهم، وتقوض خيامهم، وتذيع فى قلوبهم الرعب والفزع؛ فخافوا أن يُبَيِّتهم المسلمون فى تلك الفرصة، فعقدوا عزمهم على الرحيل.

قال ابن إسحاق: «فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم، وما فرق الله من جمعهم، دعا حذيفةَ ابن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلا.. (يقول حذيفة): لقد رأيتُنا مع رسول الله بالخندق، وصلى رسول الله هُوِيًّا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: «مَنْ رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟ أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة»! فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد. فلما لم يقم أحد دعانى، فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى. فقال: «ياحذيفة، اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تُحدِثَنَّ شيئًا حتى تأتينا». (قال): فذهبت فدخلت فى القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل. لا تُقِرُّ لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناء. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظرْ امرؤٌ مَنْ جليسهُ! (قال حذيفة): فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان. ثم قال: يامعشر قريش، إنكم - والله - ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكُراع والخف، وأخلفَتْنا بنو قريظة وبلغَنا عنهم

الذى نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما يطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء. فارتحلوا فإنى مرتحل.. ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىّ: «لا تحدث شيئًا حتى تأتينى» لقتلته بسهم. (قال حذيفة): فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مِرْط لبعض نسائه، فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه وطرح علىّ طرف المرط، ثم ركع وسجد وإنى لَفيه. فلما سلم أخبرته الخبر. وسمعت غطفانُ بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم».

وحين نظر المسلمون فى إشراقة الصبح، فلم يجدوا أحدًا من جموع العدو الحاشدة، أيقنوا أنهم مؤيدون بعناية الله، وأن عين الله تكلؤهم وترعاهم، وازدادوا إيمانًا بأنهم على الحق، وأن الله ناصرهم على عدوهم أبدًا.. ونظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه نظرة يملؤها الأمل والثقة بالله وقال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».. ! ثم هتف وهتف وراءه أصحابه: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شىء بعده»!!

طبيعة المعركة

لم تكن غزوة الأحزاب هذه معركة ميدان، تتميز فيها البطولة بالكر والفر، والإقدام والإحجام؛ بل كانت معركة أعصاب، وامتحان عزائم، واختبار قلوب؛ ومن أجل هذا أخفق فيها المنافقون ونجح المؤمنون.. فبمقدار ما أظهر المنافقون ومرضى القلوب من الجزع والشك وضعف النفس، أظهر المؤمنون من الجلد والصبر وقوة الاحتمال ما يدل على قوة إيمانهم، وصدق يقينهم بالله، وثقتهم بأن وراء هذه الشدة فرجًا قريبًا، وأن الله تعالى إنما أراد بهذه الشدة أن يبتليهم ويمتحن إيمانهم. فلما نجحوا فى الامتحان هذا النجاح الباهر مد الله إليهم يده الرحيمة، واستنقذهم بنعمته من براثن أعدائهم: ﴿ولمَّا رأى المؤمنُون الأحزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنا الله ورسولهُ وصدَقَ الله ورسولهُ وما زادهم إلا إيمانًا وتَسْليما * منَ المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدوا الله عليه فمنهم مَن قَضى نَحْبَه ومنهم مَن ينتظر وما بَدَّلوا تبديلا * لِيَجْزِيَ الله الصَّادقين بصدقهم ويعذبَ المنافقين إنْ شاء أو يتوبَ عليهم إنَّ الله كان غفورًا رحيمًا * ورَد الله الذين كفوا بغَيْظِهم لم ينالوا خيرًا وكَفى الله المؤمنين القتالَ وكان الله قويًّا عزيزًا﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب الآيات ٢٢ - ٢٥.